المغرب (٢): الشارع العربيّ ـ بوادرُ تخلُّقِ الرأي العام

حصيلة حوار مع عبد الحق لبيض

المقرئ أبو زيد الإدريسي

التظاهر سياسيّاً ونفسيّاً واجتماعيّاً

من الناحية السياسيّة ترتبط المظاهرة، في الوعي البشريّ والإنسانيّ المعاصر، بأجواء الديمقراطيّة والاستنارة، والتنظيم التعاقديّ المعقلن للعلاقة بين الحاكم والمحكوم. وهي شكل من الأشكال الراقية في التعبير وإبداء المواقف، لا في سلميَّتها وحضاريَّتها فحسب، وإنما في كونها أيضًا إقرارًا عمليّاً وعريضًا بحقّ الشعوب في إبداء آرائها، واستغلالِ قوّتها حين لا تجدي القنواتُ التقليديّةُ الصامتةُ والهادئة.

ومن الناحية النفسيّة، تشكّل المظاهرة نوعًا من التنفيس عن حالة احتقان، وذلك عندما تمارس وسائلُ الإعلام تأطيرَها للجماهير، إو عندما تقوم أجهزةُ التعبئة (كالأحزاب السياسيّة والنقابات) بعمليّات شحن للمواطنين في اتجاه موقف سالبٍ في الغالب، أو موجبٍ في بعض الأحيان، من قضيّة أو شخص.

وإذا كان يَغْلب على الأمثلة التي ذكرناها الجانبُ السلبيُّ، فلأننا نتحفّظ كثيرًا على المظاهرات ذات الطابع الإيجابيّ، لأنّها غالبًا ما تكون مجيَّشةً في ظلّ الأنظمة الشموليّة التي تستغلّ المظاهرةَ من أجل أن تميِّعها وتحوِّلها أداةً من أدوات استضعاف الجماهير وإذلالها باسم الجماهير وعلى أيديها. فكثيرٌ من المظاهرات يتم تصنيعُها وتوجيهُها بطريقة القهر والاستخبارات من أجل إعلان موقفٍ مساندٍ للحاكم.

وأما من الناحية الاجتماعيّة، فإن المظاهرة تَحْشد كتلةً من الناس الذين تجمعهم روابطُ اجتماعيّةٌ تهدف إلى خدمة مصالح محددة؛ فقد تكون المظاهرة بمناسبة الأوّل من أيّار تعبيرًا عن التماسك النقابيّ لفئة محدَّدة. لكنّ المظاهرة قد تتجاوز بعدَها الاجتماعيّ عندما يتعلق الأمر بقضايا الأمّة؛ فمظاهرات مساندة العراق وفلسطين ذاتُ بعد اجتماعيّ ضامر إلى حدٍّ ما، وذلك لصالح بعديْها النفسيّ والسياسيّ.

تخلُّقُ الرأي العام في الوطن العربيّ

تتمثل الأداةُ المحرّكة والموجِّهة للشارع السياسيّ والاجتماعيّ في وجود رأيٍ عامّ فاعل ومؤثِّر. فبقدر ما يكون الرأيُ العامُّ قويّاً، تكون للشارع ديناميَّتُه الفاعلة، وقوّةُ شخصيّته الضاغطة على مصادر صياغة القرارات المصيريّة.

في العالم العربيّ هناك رأيٌّ عامّ بالمعنى المجرَّد، حيث يبلور الجمهورُ موقفًا نفسيّاً وعاطفيّاً وفكريّاً من قضيّة معيَّنة، مثل قضيّة الوحدة وقضيّة فلسطين. فالشعوب تحتاج دومًا إلى بلورة روح عامة، بعيدًا عن التفاصيل الدقيقة للموقف المعرفيّ والعلميّ. والسياسيّ الماهر، كما يقول منير شفيق، هو الذي تكون عينُه على الخطّ العامّ للجماهير، لأنّ الجماهير ـ عبر التاريخ ـ لم تخطئ في خطّها العامّ.

غير أنّ ما يفتقر الشارعُ العربيُّ إليه هو وجود رأيٍ عامّ سياسيّ خالص، يكون بمثابة خيارٍ ضاغط. وهذا الافتقار لا يعود بالأساس إلى الجماهير، وإنما إلى نمط الحكْم السياسيّ الذي يجب أن ينفتح على المزيد من احترام الديمقراطيّة. ففي «إسرائيل» مثلاً هناك رأيٌّ عامّ. فعندما تتحرك «الأمة الإسرائيليّة» في اتجاه الرغبة في أن تستبق خطوةً إلى الأمام في التدافع السياسيّ مع الفلسطينيِّين، يختار الرأيُ العامّ أمثال شارون؛ وعندما يستشعر الخطر يتراجع ليختار رجلاً مثل بيريس يقوم بدور «التلطيف.» وفي كلّ محطة من محطات الوعي النفسيّ والفكريّ والسياسيّ لتلك الأمّة، تبرز الانتخابات، الرمزُ الملائم لهذا الاختيار. وفي أوروبا رأيٌّ عامٌّ قائمٌ يَفْرض صوتَه على الخيارات الإستراتيجيّة للأمة، حتى في الاتجاه الخطإ. ففي قضيّة تحديد النسل، مثلاً، لم يتمكّن أيُّ حزب سياسيّ أو زعيم سياسيّ من ممارسة أيّ خطاب لإرغام المرأة على العودة إلى البيت والانشغال بالإنجاب من أجل إنقاذ المجتمع من الشيخوخة الديمغرافيّة؛ ذلك لأنّ الحركات النسائيّة من القوّة والتغوُّل بحيث تجعل أيَّ مسؤول سياسيّ يتكلم عن ضرورة أن تضحّي المرأة بمكتسباتها يعرّض نفسَه للإعدام السياسيّ.

لا شيء يمكنه أن يفتّ في عضد الفلسطينيّين مثل صمت الشارع العربيّ

في عالمنا العربيّ، لم نرقَ بعدُ إلى مجرد مراعاة الحدّ الأدنى من التوجُّهات والمشاعر والمصالح الحيويّة للمجتمع. فأنظمتُنا تسير في الاتجاه المضادّ لمصالح شعوبها. وهذا يدلّ على أنّ الرأي العام، بالمعنى السياسيّ، منعدمٌ لدينا، لأنّه لا يؤثّر في الحاكم لحظةَ تخطيطه لموقفه. ففي المغرب، مثلاً، هل تراعي السياسةُ الفرنكفونيّةُ الرأيَ العامَّ المغربيَّ تجاه المسألة اللغويّة، بشقَّيْها العربيّ والأمازيغيّ، وهو رأي عامٌّ له موقف واعٍ وشبهُ موحَّدٍ من الفرنكفونيّة غيرِ المبرَّرة بعد نصف قرن من الاستقلال؟ وأما في ما يتعلّق بالقضيّة الفلسطينيّة، فإنّ اختيارات الأنظمة العربيّة لم تتوافق، ولو في الحد الأدنى، مع جماهير الأمة العربيّة. فالشعب المصريّ غاضب وهائج وينزل إلى الشوارع، رغم شراسة القمع المسلّح، كي يقول للنظام: اقطعْ علاقتَكَ بـ «إسرائيل.» غير أنّ النظام المصري مصرٌّ على الالتزام بكامب ديڤيد التي لا تلتزم بها «إسرائيل،» ومصرٌّ على حماية السفارة الإسرائيليّة واستمرار أنشطتها بالكامل. ونجد الرئيس المصريّ يذهب في تصريحاته إلى الادّعاء بأنّ هذه العلاقة هي في صالح فلسطين، ولسانُ حاله: لو قطعتْ مصرُ علاقاتِها مع «إسرائيل» لَفَعَلَ شارون ما يريد. وكأنّ شارون لايفعل الآن ما يريد!

الرأي العام العربيّ والقضيّة الفلسطينيّة

رغم كل المعوّقات التي أتينا على بعض منها، والتي تبيّن أنّ «الدولة ضدّ الأمّة» بحسب تعبير برهان غليون، فإنّ الرأي العام العربيّ في بعده العاطفيّ والنفسيّ قد تحرّك لمساندة القضيّة الفلسطينيّة. إلاّ أنّ السؤال هو: هل استطاعت هذه المظاهرات أن تفيد القضيّة الفلسطينيّة في محطتها الحاليّة؟ من المؤكّد أنّها تمكّنتْ من رفع معنويّات الكفاح الفلسطينيّ. فعندما نتابع فضائيّةَ فلسطين، أو عندما نلتقي بإخوة من مجاهدي فلسطين، نحسّ بتأثير هذه المظاهرات، إذ لا شيء يُمْكنه أن يفتّ في عضد الفلسطينيّين مثل صمت الشارع العربيّ. وفي هذا الصدد نودّ أن ننبّه إلى الخطاب العدميّ والإحباطيّ التضليليّ الذي تمارسه بعضُ الجهات، عن حسن نيّة أو عن سوء نيّة، عندما تدّعي أنّ الشعب الفلسطينيّ ليس محتاجًا إلى المظاهرات لأنّها ليست خبزًا يؤكل، ولا رصاصًا يُطْلق على العدو، ولا دواءً يداوي الجروحَ. إنّ هذا الكلام يذكّرنا بالماديّة البدائيّة، ماديّةِ فيورباخ، أو ماديّةِ ما قبل ماركس. ذلك لأنّ الشعوب والأمم لا تعيش بالماديّات فحسب، وإنما يحرّكها الجانبُ المعنويُّ أيضًا. فلو كانت الأمورُ ماديّةً محضة، لما كانت هناك مقاومةٌ فلسطينيّةٌ تُذْكر، ولما بقي هناك أصلاً شعبٌ فلسطينيٌّ في الوجود. ولو كانت الأمور تُحْسب بحساب الماديّات لكانت دولةُ لبنان هي أكثر الدول انبطاحًا أمام العدوّ الصهيونيّ، نظرًا إلى الحدود الجغرافيّة المشتركة، وصغرِ البلد، وضعفِ موارده، وخروجِه من حربٍ طاحنةٍ مزّقتْه. لكنّ واقع الحال أنّ لبنان أقوى بلد في بلدان الطوق تماسكًا في موقفه السياسيّ ضد «إسرائيل،» وذلك من خلال إصراره على تحرير أرضه بالسلاح، ودعمِه المعنويّ والسياسيّ لجهاد حزب اللّه، ورفضِه للأطروحة الصهيونيّة ـ الأمريكيّة بتجريم هذا الحزب وتجريده من الأسلحة كما فعلتْ بعض الأنظمة العربيّة مع الحركات الإسلاميّة بحجّة مكافحة الإرهاب. إنّنا إزاء صراع بين ميزان الإرادات وميزان القوة، كما بلورهما الأستاذ عبد الإله بلقزيز. وبمنطق ميزان الإرادات، فإنّ هذه المسيرات والتظاهرات تلعب دورًا في دعم صمود الفلسطينيّين. وهي تُسْهم أيضًا في ردع وتخجيلِ المطبّعين. كما استطاعت أن تحرّك ضميرَ الرأي العام العالميّ، لأنّ المظاهرات التي خرجتْ في كل أنحاء العالم كانت استجابةً لتأثير الشارع العربيّ ـ وإلاّ فكيف السبيلُ إلى الوصول إلى ضمائر الشارع الأوروبيّ والأمريكيّ الذي تهيمن عليه وسائلُ الإعلام الصهيونيّة، وتكيّف فكرَه، وتخترق عقيدته المسيحيّةَ نفسَها عن طريق صهينة المذهب البروتستانتيّ اليمينيّ المتطرف؟

غير أنّ قوّة الشارع العربيّ ودرجات تأثيره قد يصيبها الضعفُ بفعل التدافع السياسيّ والمذهبيّ بين الأحزاب السياسيّة. ونستطيع أن نقدّم، بالمناسبة، شهادةً من تاريخنا السياسيّ القصير. فعندما انتمينا إلى الحركة الإسلاميّة في أواخر

المغرب (٢): الشارع العربيّ ـ بوادرَ تخلّقِ الرأي العام

السبعينيّات، كنا نذهب إلى التجمُّعات العامّة المناصرة للقضيّة الفلسطينيّة من أجل تحقيق هدفيْن: أن نساند القضيّةَ الفلسطينيّة، وأن نناكفَ الإيديولوجيّات المناوئة. وكنا ندخل في نوع من المزايدات والشعارات والشعارات المضادة مثل القول إنّ «فلسطين إسلاميّة» في مواجهة القول بأنّ «فلسطين عربيّة.» وأحيانًا تقع مشاداتٌ بالأيدي. وأحيانًا أخرى يخرج طرفٌ سعيدًا لمجرّد أنّه أفشل للطرف الآخر نشاطَه عن القضيّة الفلسطينيّة! لقد كانت، بحقّ، فترةً اتّسم فيها اللاعبون السياسيُّون والحزبيُّون بنوع من الطفولة والمراهقة السياسيّة. ونعتقد أنّ الحركة الإسلاميّة لم تكن في هذا الأمر بِدْعًا في الشارع السياسيّ العامّ في المغرب.

أما اليوم فهناك قناعة بأنّ حدّاً أدنى من النضج والتجرُّد للقضيّة يدفع إلى الاهتمام بها بعيدًا عن اللافتات والألوان. وهذا التحوُّل الذي طرأ على الحركة الإسلاميّة يكاد يطول معظمَ الأحزاب السياسيّة المغربيّة الأخرى. وأكبرُ دليل على ذلك توفُّرنا في المغرب على لجنة للتنسيق تنعقد دومًا لمساندة الكفاح الفلسطينيّ؛ وهي تتميَّز بكثير من التجرُّد والإخلاص والذوبان في القضيّة القوميّة، وتَحْرص على ألاّ ترفع لافتاتٍ وشعاراتٍ وعناوينَ تسمّي هذا أو تسمّي ذاك. وباتت كلُّ المشاكل تُحلّ عن طريق توحيد الشعارات واللافتات، والحرص على أن تكون معبِّرةً عن موقف من القضيّة لا عن الجهة التي تُبْرز هذا الموقف. ويبقى الإشكالُ الأساسُ الذي يَعترض لجنةَ التنسيق أثناء تنظيمها للمسيرات الاحتجاجيّة هو الواجهة أو الصفّ الأول من المسيرة؛ وهنا لا بدّ أن تتراصّ كلُّ الأطراف، فيقع نوعٌ من تبادل المواقع ونوع من الإرضاء والتمثيل الرمزيّ. وتمرّ نقاشاتُ لجنة التنسيق في أجواء ملائمة. ففي مسيرة الرباط الأخيرة كنّا جميعًا قد التزمنا، نظريّاً، بكل مقترحات لجنة التنظيم. غير أنّه أثناء التطبيق في الشارع الذي يموج بالملايين، يأتي الشبابُ الأغرارُ أو المندسُّون والمغرضون، ويأتي مَنْ تتلبسهم روحٌ تسمى بـ «السيكولوجيّة الجماعيّة،» فتقع بعضُ الرعونات والصبيانيّات، إلاّ أنّها تبقى محدودة.

المهمّ الآن هو كيف يمكننا أن نؤطِّرَ هذه الجاهزيّة و نخرجَ بها من الاندفاعيّة نحو العقلانيّة والوعي والاتّزان في التعاطي مع القضيّة الفلسطينيّة ومع القضايا القوميّة الأخرى. فاندفاع الجماهير يَفْتر مع مرور الزمن ـ وهذا شيء طبيعيّ في حياة الشعوب وفي سيكولوجيَّتها. والاندفاع في حدّ ذاته مؤشِّر على العاطفيّة والمزاجيّة، غير أنّه مطلوبٌ في حدّ ذاته: ففي قضيّة مأساويّة كالقضيّة الفلسطينيّة ينبغي أن تستمرّ الجماهيرُ في الانقذاف إلى الشارع يوميّاً، ويَنْبغي أن يكون صبيبُ تلك الاندفاعات قويّاً، مهما اقتصر على حمولة محدودة وعابرة كالحمولة العاطفيّة.

غير أنّ أفول جذوة الجماهير ليس دائمًا ذاتيّاً متعلِّقًا بالجماهير، وإنما تلعب فيه الأنظمةُ العربيّةُ دورًا كبيرًا حين تسخِّر أجهزتَها الاستخباراتيّةَ والأمنيّةَ من أجل عرقلةِ أو قمع كلّ محاولةٍ لمساندة الشعب الفلسطينيّ في كفاحه. ففي المغرب، مَثلاً، ومنذ أكثر من شهرين، أصبحتْ وزارةُ الداخليّة لا تستحيي من أن تسلِّم منعًا مكتوبًا لأيّ طرف تَقدَّمَ إليها بطلب رخصةِ تنظيم تظاهرة من أجل دعم الكفاح الفلسطينيّ. وفي الأردن، صرّح النظامُ أنّه سوف يَدْفع إلى المحاكم كلَّ شخص يتظاهر من أجل القضيّة الفلسطينيّة. وفي مصر، تطوّرتْ لغة الهراوات بشكل خطير، حتى إنّنا بتنا نسمع عن حالات استشهاد. وكذلك الشأن في البحرين، وغيرها من البلدان العربيّة.

لكنا مع كل ذلك مدعوّون إلى التفكير جديّاً في عمل يحوِّل هذه الاندفاعات وهذه الجاهزيّةَ الجماهيريّةَ إلى نوع من الاستمراريّة تَبْني الوعي وتؤسِّس الذاكرة وتتحوّل إلى ضغط فعليّ على الأنظمة. فأنظمتُنا تتجاهلنا وتَخْضع لأوامر أميركا وصندوق النقد الدوليّ، وهي أنظمة ـ بنيويّاً ـ مبنيّةً ضد الأهداف القوميّة والوطنيّة والدينيّة للأمة، لكنّها ليست، في نهاية المطاف، مُطْلقةَ القدرة على الصمود والتحصن من آثار الجماهير. إضافةً إلى ذلك فإنّ هذه الأنظمة في حاجة، ولو من باب التكتيك، إلى الاعتذار للسادة الآمرين بضغط الجماهير. نَذْكر في السياق ذاته أنه في حوار في مجلّة **نيوزويك**

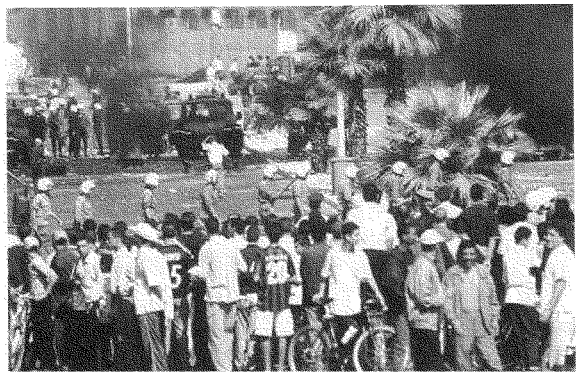

إذا استطعنا محاصرة أنظمتنا بعمل ممنهج أحدثْنا تغييرًا جزئيًا في خياراتها

سألت المحاورةُ الأميركيّةُ الرئيس مبارك عن أسباب عدم تمكنه من الضغط على ياسر عرفات للاستجابة لاقتراحات باراك وضغوط كلينتون في مباحثات كامب ديڤيد، فردد مقولةَ استقلاليّة الرئيس عرفات في اتخاذ القرارات التي يراها في مصلحة وطنه، وأنّ مصر لا تَمْلك مفاتيحَ الرئيس الفلسطينيّ، ثمّ عاد ليبرِّر عدم ضغطه على عرفات بفورة الشارع المصريّ وموقف الجماهير السلبيّ من كل ضغط قد تمارسه الإدارةُ المصريّة على القيادة الفلسطينيّة في اتجاه القبول بالشروط الإسرائيليّة ـ الأميركيّة. لذلك فإنّ الجماهير هي العمق الاستراتيجيّ الذي يَنْبغي أن ترتدّ إليه الأنظمةُ العربيّةُ للممارسة المانِعة تجاه إكراهات الراهن، وأظهرُها إكراهاتُ العدوّ الصهيونيّ والغطرسة الأميركيّة. فإذا استطعنا محاصرة أنظمتنا بعمل ممنهج ومنظّم يستعصي على الإذابة ويصمد في وجه القمع ووسائل التفتيت والإغراء وشراء الذمم، فبإمكاننا أن نصل إلى نتائج يُمْكنها أن تُحْدث تغييرًا ولو جزئيّاً في خيارات هذه الأنظمة وتجعلها، من ثمّ، أمام ضغط من جانبيْن: جانب داخليّ مؤثِّر يتمثل في قوة الشارع، وجانب خارجيّ ممثلاً في المؤسسات الدوليّة والإدارة الأميركيّة. وهو ما يضطرها آنذاك ـ في أقلّ تقدير ـ إلى انتهاج سياسة المناورة في تعاطيها مع القوتين الضاغطتين. ونعتقد أنّ قضايانا القوميّة، مثل قضيّة فلسطين، يُمْكنها أن تلعب دورًا كبيرًا في بلورة الوعي بأهميّة الشارع العربيّ ودوره المركزيّ في صياغة القرار السياسيّ العام للأمّة، بل وللقطر الواحد. فثمّة تعالقٌ بنيويّ بين القضايا القوميّة والقضايا الوطنيّة. في المغرب، على سبيل التمثيل لا غير، أَثْبتت الدراسات العلميّة وجودَ مخاطر كبيرة من الاختراق الصهيونيّ، سياسيّاً واقتصاديّاً وصحيّاً. والذي استطاع أن يَلْفت الانتباه إلى هذه المخاطر وأن يحدّ منها قليلاً هي الانتفاضة! ولطالما بُحّتْ حناجرُنا بالمطالبة بإغلاق مكتب الاتصال الإسرائيليّ بالمغرب، لكنّ الذي أغْلقه هو الانتفاضة. والرؤوس التي خرجتْ تساند، «باسم السلام» و«ثقافة السلام،» الصهيونيّةَ العالميّةَ علنًا وبدون استحياء هي اليوم مختبئةٌ في جحورها، بفعل جذوة الانتفاضة التي تفجرتْ في وجوههم وأبطلتْ دعاويهم.

لكنّ الوعي الإستراتيجيّ بقضيّة فلسطين غائبٌ عند الكثير من الأحزاب والنقابات والجمعيّات، للأسف. وكثير من هذه الجهات تعيش حالاتٍ من الأنانيّة الذاتيّة والانتكاسة والانغلاق على الشأن المحليّ والوطنيّ. وقد ينضاف إلى ذلك، الجهاتُ التي تهدف إلى الركوب على القضيّة الفلسطينيّة بغيةَ الوصول إلى تحقيق شعبيّة جماهيريّة أو تسجيل موقفٍ أو استعراض عضلاتٍ. وأمّا الجهات التي لها رؤية قوميّة أو دينيّة مركزيّة، فتعاني افتقارًا إلى الأدوات المعرفيّة الناضجة، وإلى آليّات الحداثة بمعناها التقنيّ. كما تشكو من غياب التنسيق في ما بينها، في حين يَحْتاج النضالُ من أجل القضايا القوميّة الكبرى، مثل قضيّة فلسطين، إلى تنسيق واسع وعميق. فنحن لا نقاتل إسرائيل وحدها، ولا نقاتل أميركا بمفردها، وإنما نقاتل قوةً دوليّةً تسود العالم وتَحْكمه بالتكنولوجيا وبالعمل الاستخباراتيّ الدوليّ وبالدراسات الإستراتيجيّة والمستقبليّة، وتحكمه بالحديد وبالنار وبالأسلحة النوويّة وبالمؤسسات الماليّة الخطيرة.

لذلك فإنّ الرهان الأكبر في هذا المجال يبقى على الجاليات العربيّة والإسلاميّة القاطنة في دول الغرب، والتي بدأتْ ـ من خلال تكتلها في المعاهد والمراكز والجمعيّات ـ تقيم علاقاتٍ تنسيقيّةً مع الجهات الحقوقيّة والمناضلة المستقلّة والجريئة. ونستطيع أن نَذْكر، على سبيل المثال لا الحصر، المركزَ الإسلاميَّ في ستراسْبور، الذي عَقَدَ شراكات واسعة مع جهات أوروبيّة ودخل في حوارات مسيحيّة وإسلاميّة وحوارات فرنسيّة ـ مغربيّة. ونَذْكر كذلك منظمة MASSومنظمة CAIR بالولايات المتحدة الأميركيّة، وهما منظّمتان تلعبان دورًا حيويّاً في مجال التواصل مع الشعوب الأخرى. ومن شأن هذه المنظّمات وغيرها أن تُسْهم في التأثير في الرأي العام الغربيّ، وأن تعمل على إخراج القضيّة الفلسطينيّة إلى بعدها الإنسانيّ. ولا بدّ من التفكير في البعد المسيحيّ

المغرب (٢): الشارع العربيّ ـ بوادرُ تخلّق الرأي العام

للقضيّة. فهناك مقدّسات مسيحيّة يُعتدى عليها من جهة العدوّ الصهيونيّ، ويُهدف إلى تهويدها أو طمس معالمها. ولم توفّر قواتُ شارون لا مدينةَ الناصرة برمزيّتها عند المسيحيّين وارتباطها بالمسيح عليه السلام، ولا بيت لحم، ولا كنيسةَ المهد. والحاصل أنّ المسيحيّين، عالمياً، هم، قوة ديمغرافيّة عملاقة، واهتمامهم بالقضيّة الفلسطينيّة ـ من زاوية الاهتمام العاطفيّ والدينيّ ـ يمكنه أن يلعب دورًا في عولمة القضيّة الفلسطينيّة بالمعنى الإيجابيّ للكلمة.

قراءة في سيمياء الشعارات في الشارع العربيّ والغربيّ

يدفعنا النقاشُ في موضوع عقلنة الرأي العام العربيّ ومأسسته، إلى الخوض في مسألة الشعارات التي يتبناها الشارعُ العربيُّ أثناء تظاهره لفائدة القضيّة الفلسطينيّة. وقد قيل عن الشعارات التي حملها المتظاهرون في المسيرات العربيّة، ومنها مسيرةُ الرباط، إنّها كانت راديكاليّةً وغيرَ عقلانيّة وبعيدةً عن الواقعيّة السياسيّة وغارقةً في النزوعات الرومانسيّة. والحقيقة أنّ ثمّة علاقة جدليّة بين طرفين: الطرف الأوّل هو لغة البواعث الذاتيّة، التي هي المفتاح الحقيقيّ لتحريك الإنسان. والطرف الثاني هو عقلنة الإطار والمقصد الذي تهدف إليه. والحكمة أن نجد نوعًا من التوليفة الناجحة بين الطرفين. فالجماهير تتحرّك في المظاهرات كحالةٍ عاطفيّة، وتَحْمل الشعارات التي تعبّر عن هذه الحالة، ومن ثمّ لا يُمْكن أن تتحوّل هذه المظاهراتُ أو تلك الشعاراتُ إلى حالة رياضيّة وعقلانيّة مجرّدة. لكنْ، من جهة أخرى، هناك إطار معقلن وموضوعيّ يجب أن تصبّ فيه حركتُنا من أجل تحقيق أهدافها. وإلغاء الطرف الأول باسم الطرف الثاني لا يُحْدث التظاهرة أصلاً. وإلغاء الثاني باسم الأول يَجْعلها تَخْرج إلى مقصدٍ غير مقصدها. فالواجب على القادة المؤطّرين أن يأخذوا بيد الشعوب بطريقة ذكيّة وبنوع من التربية المتدرّجة والعميقة، للوصول بها إلى مستويات من الانتظام الذاتيّ الداخليّ الذي يؤسّسه الوعيُ والرؤيةُ السلميّة، بحيث لا يَفْقد الإنسانُ حيويّتَه وروحيّتَه، عنيتُ عاطفيّتَه واندفاعيّتَه، أيْ قدرتَه على الصراخ في وجه الظلم والظالمين. وفي مستوى آخر لا بدّ لهذه الجماهير، مع مرور الوقت، من أن تنضبط بشكلٍ آليّ، بفعل عمليّة تربية بطيئة وعميقة.

ومع ذلك قد لا يكون مضرّاً بالمصلحة والمقصد أن تقول الجماهيرُ مثلاً: «سنرمي إسرائيل إلى البحر،» لأنّ هذا النوع من الخطاب لا يعبّر عن رغبة واعية ومؤسّسة تتحول إلى فعلٍ مخطّطٍ له ينتهي إلى الإصرار عليه، خاصةً بالنسبة إلى الشعوب الإسلاميّة التي تعاملتْ مع الصليبيّين والاستعمار. هذا الصراخ يعبّر عن حالة غضب، ويعبّر عن مضمون غير المضمون اللسانيّ للجملة، اللهم إلاّ إذا التقطتْه الصهيونيّةُ وبثّتْه بنوع من «التظلم» الذي يحرّك نوازعَ الخوف ممّا يسمى بـ «النازيّة الجديدة.»

ورغم أننا ننتمي إلى التيار الإسلاميّ، ونؤْمن بالكثير من مقولاته، وبعضُها عاطفيّ، فإنّنا انزعجنا كثيرًا من الشعارات التي رُفعتْ في المسيرات التي عرفها الغربُ وقادها عربٌ ومسلمون. فثمّة شعارات قد تُقْبل داخل العالم الإسلاميّ إلاّ أنّها تظل مخيفةً في بلد كفرنسا يَحْكمه اللوبي الصهيونيُّ. وقد بيّنّا ذلك بعد مسيرة ستراسبور في مارس ٢٠٠٢. كما أكّدنا أنْ لا جدوى من إطلاق شعارات باللُّغة العربيّة في مجتمعٍ نَهْدف إلى إيصال أصواتنا إليه.

وجملة الشعارات التي نُطْلقها في مسيراتنا، وبخاصة في الغرب، قد تستفيد منها الاستخباراتُ الصهيونيّة. ففي فرنسا ينتهج شارون سياسةً مقيتةً عن طريق سفارته في باريس، يَهْدف من خلالها إلى بثّ الرعب في نفوس اليهود الفرنسيّين الذين يزيدون عن سبعمائة ألف نسمة، وذلك من خلال إيهامهم بأنّهم في خطر لكي يتمكّن من تهجيرهم إلى «إسرائيل.» ولهذا فإنّ الشعارات لا بدّ أن تأخذ بعين الاعتبار هذا الأمر، خاصةً عندما تَصْدر عن الساسة في أعلى الهرم. نَذْكر في سنة ١٩٦٦، عندما سُئل عبد الناصر، «ماذا ستفعلون بإسرائيل إذا ما اندلعت الحربُ بينكم وكان الانتصار حليفكم؟» أنّه أجاب قائلاً: «سنرميهم في البحر.» هذه العبارة

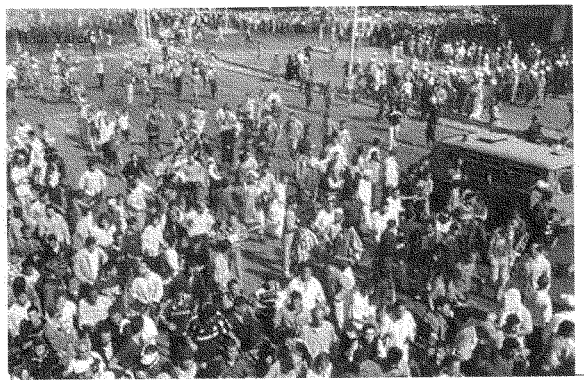

المسيرات تَدْعم الفلسطينيِّين وتسهم في ردع المطبِّعين وتخجيلهم

العفويّة التقطها الإعلامُ الصهيونيُّ ومطَّطَها وكرَّرها وقَرَعَ بها الأدمغةَ حتى وَرَّمها وابتزّ بها الضميرَ الأوروبيَّ والغربيَّ بطريقة انتهازيّة ماكرة رُفعتْ بها شعاراتُ جمع الأموال لدعم الصهيونيّة.

من بين الإشكالات التي طرحتْها الشعاراتُ التي رُدِّدتْ في المظاهرات في العالمَيْن العربيّ والإسلاميّ، درجةُ الخلط بين ما هو سياسيّ ودينيّ في التعاطي مع المسألة الصهيونيّة. وفي هذه النقطة بالذات قد يقع لبسٌ شديد. فإذا كنا نَقْصد بالديانة اليهوديّة تلك الديانةَ التي أوحى بها اللّهُ إلى موسى، والتي ضَمّنها في كتابه الموحى به إلى بني إسرائيل عن طريق التوراة، فلعلها لا علاقة للصهيونيّة بها، خصوصًا أنّ مؤسِّسي الصهيونيّة كانوا كلهم ملاحدة ومتطرفين في إلحادهم، وكانوا علمانيين وضدّ الديانة اليهوديّة ـ من هرتزل إلى بن غوريون، مرورًا بعازرا وايزمان. لكنْ إذا كان المقصود في تلك الشعارات الديانةَ اليهوديّةَ المحرَّفةَ، والتي تتضمن فكرةَ شعب اللّه المختار، وفكرةَ أرض الميعاد، وهيكل سليمان، وكلَّ المسمَّيات التي تصادر الهويّةَ الفلسطينيّةَ والهويّةَ العربيّةَ الإسلاميّةَ لفلسطين، وتلغي حقَّ شعب في الوجود باسم مسمًّى إيديولوجيّ خرافيّ، فلا شكّ أنّ هناك ترابطًا بنيويًّا والتحامًا قويًّا يصعب معهما الفصلُ بين اليهوديّة والصهيونيّة. ويمكننا أن نستأنس في هذا المقام بآراء روجيه جارودي في كتاب **الأساطير المؤسِّسة للسياسة الإسرائيليّة**، وآراء إسرائيل شاحاك في كتابه المتميز **التاريخ اليهوديّ والديانة اليهوديّة: وطأة ثلاثة آلاف سنة**. في الكتاب الأول، قسّم غارودي الأساطير الإسرائيليّة إلى أساطير دينيّة وأخرى سياسيّة، فدرس دراسة معمّقة الأرضيّةَ الدينيّةَ الموظَّفة بشكل انتهازيّ من قِبَل الصهيونيّة. أما شاحاك فقد دخل في أعماق المخيال والعقليّة الأنثروبولوجيّة والتاريخيّة للديانة اليهوديّة، وبيّن التعالقات البنيويّة والمنطقيّة التي تؤدي مباشرةً من الاعتقاد اليهوديّ إلى الموقف الصهيونيّ. وقد غاص لتأكيد ذلك في التوراة وتفاسيرها وفي التلمود وتفاسيره وفي الميشناح (وهي المدوَّنة الفقهيّة اليهوديّة)، وأخرج منها أشكالاً من العنصريّة عند اليهود واحتقار الآخرين وتجويز الإضرار بهم.

أمّا الفرق بين الصهيونيّ اليهوديّ والصهيونيّ العَلْمانيّ فهو فرق في المعتقدات التي لا تتجاوز القلبَ والعقلَ. إنّ الفرق بين هرتزل وبن غوريون وعازرا وايزمان الذين كانوا يوظِّفون المعتقدات اليهوديّة بنوع من الانتهازيّة لجذب يهود العالم، وبين اليهوديّ اليمينيّ المتطرِّف مثل مناحيم بيغن وإسحق شامير وآرييل شارون، هو فرق في الاعتقاد الروحيّ والفكريّ ولا علاقة له بالواقع العمليّ. ولهذا لا يعنينا أن يكون الذي كاد لفلسطين ودبَّر لها مثلَ هذه المأساة علمانيًّا كهرتزل، أو خرافيًّا كشارون. فالنتيجة عندنا واحدة.

وأما شعار ربط الصهيونيّة بالنازيّة، فهو يتغيّا النقرَ على البعد الأخلاقيّ الذي يُمْكنه أن يحرِّك الضميرَ الغربيَّ. ولأنّ اليهود أحسنوا ابتزازَ الضمير الغربيّ تجاه الهولوكوست، فإنّ هذا الضمير بات حسّاسًا ضدّ النازيّة. لهذا علينا أن ننبّه إلى أنّه من باب الاستنتاج المنطقيّ والرياضيّ أن يكون موقفُه من شارون كموقفه من هتلر. وإذا كان هذا الضمير يتأزَّم باستمرار ويحسّ بعقدةٍ تجاه ما اقترفه هتلر ضد الإنسانيّة، فإنّه مطالَبٌ اليومَ بأن يراوده الإحساسُ نفسُه تجاه ما يقترفه شارون ضد الشعب الفلسطينيّ. كما أنّ ربط الصهيونيّة بالنازيّة ليس من باب الشعارات الأخلاقيّة، وإنّما يستند إلى معطيات تاريخيّة دقيقة أَظْهرتْ مدى التنسيق التاريخيّ بين النازيّة والصهيونيّة. بل إنّ أعمدة الصهيونيّة كانوا عملاء للنازيّة. وقد اعتمد هتلر على جنرالات يهود في جيشه للقيام بأعمال ضد اليهود من أجل خدمة المسألة الصهيونيّة من خلال بثّ الرعب في يهود العالم كي يهاجروا إلى فلسطين. وشطرٌ لا يستهان به من اليهود الذين هاجروا إلى فلسطين كانوا قد هاجروا تحت وطأة استغلال الصهيونيّة لأعمال النازيّة. وقد أَدْرج الدكتور عبد الوهاب المسيري في كتابه **الصهيونيّة، النازيّة، ونهاية التاريخ** وثائق قيمة في هذا الموضوع. كما أدرج جارودي وثائق في شكل مراسلات سريّة بين مناحيم بيغن وعدد من رموز

المغرب (٢): الشارع العربيّ ـ بوادرُ تخلّقِ الرأي العام

الصهيونيّة الذين كانوا يراسلون هتلر سرّاً ويُغْرونه باضطهاد فئات محدودة من الشيوخ والأطفال اليهود، وذلك من أجل استثمار ذلك إعلاميّاً لتخويف الشباب الأقوياء البنية كي يهاجروا إلى فلسطين.

غير أنّ ما يجب تجاوزُه في شعاراتنا هو شخصنة الإرهاب والنازيّة في شخص شارون، حتى لا نَسْقط في فخّ التبسيطيّة. فشارون ليس بِدْعًا، بل هو يمثّل ظاهرة الصهيونيّة، ولذلك لا يُمْكن عزلُه عنها. ولا يُمْكن الحديثُ عن الحركة الصهيونيّة كحركة عدوانيّة وككيان إرهابيّ في شخص يمكن تنحيتُه لتغليط الرأي العام من أجل لملمة القضيّة وخداع الجماهير.

يبقى في نهاية هذا التحليل الحديثُ عن شعار المقاطعة كمطلب للشارع العربيّ والإسلاميّ. فرغم الأصوات التي تعلو هنا وهناك لإظهار لاجدوى مقاطعة أميركا تجاريّاً واقتصاديّاً مادامت البنياتُ الاقتصاديّةُ والتجاريّةُ للدول العربيّة مرتبطةً ارتباطًا عضويّاً بالاقتصاد والتجارة الأميركيّة، فإنّ ما يغيب عن ذهن أصحاب هذا الاتجاه الواقعيّ والبراغماتيّ أنّ القناعة أو الفكرة السامية الهادفة لبناء أمة أو لتحقيق الأهداف القوميّة النبيلة لا يتحققان مجّانًا. إنّ الوعي بمعركة المقاطعة، والوعي بوسائل المقاطعة أداةً استراتيجيّةً، يحتاجان إلى عمليّة بناء مستمرة ودائمة.

المقاطعة فعل ماديّ وفعل رمزيّ وفعل تربويّ. أما المقاطعة فعلاً ماديّاً، فلأنّ اقتصاد الدولة ـ مهما كان عملاقًا، كالاقتصاد الأميركيّ ـ يتضرّر ويهتزّ ويعيد حساباته، خصوصًا وأنّ الإنتاج الأميركيّ من الضخامة بحيث لا يُمْكنه أن يستمرّ إلاّ اعتمادًا على جلّ أسواق العالم. وإذا ما تحرّك في الشعوب العربيّة حسٌّ مقاطعة البضائع الأميركيّة، وحقّق ولو واحدًا في المائة من النجاح، فإنّ ذلك سيُعَدّ كَسْبًا عظيمًا للشارع العربيّ، مِنْ شأنه أن يُرْعب أميركا أكثرَ مما تفعله البياناتُ الرسميّةُ العربيّةُ الجوفاء.

وأما المقاطعة فعلاً رمزيّاً، فلأنّها تمسّ الرموزَ الثقافيّةَ لأميركا، مثل الماكدونالدز والمارلبورو وكوكاكولا وهوليوود وغيرها، وهي بالتحديد رموز الثقافة الشعبيّة التي تعطي صورة نمطيّة image de marque لأميركا. فنحن عندما ندعو إلى مقاطعتها في شعارات المسيرات التي ننظّمها فإنّنا نَهْدف إلى كسر العنجهيّة الأميركيّة، وإضعافِ نفوذها على الجماهير وتحريرِها من الاستلاب الثقافيّ الأميركي.

أما المقاطعة تربويّاً، فإنّها تتمثل في تربية الشعوب على التقليل من الاستهلاك والتقليل من الإقبال على المنتوجات الغربيّة حتى ولو كانت رديئة. فالماكدونالدر في أميركا هو زبالة المنتوجات الأميركيّة، إلاّ أنّها تحولتْ عندنا إلى مظهر من مظاهر الرقي الاجتماعيّ!

ولكنّ عمليّة المقاطعة، عمليّة تقنيّة وتخطيطيّة. وعلى الجهات المعنيّة أن تخطّط بالتدرّج بعمليّة المقاطعة، كأن توجّه في كل مرحلة بيانًا تنظيميّاً يسمّي هذا المنتوجَ أو ذاك، على أن يُؤْخذ في الاعتبار أنّ جزءًا من اقتصادياتنا الوطنيّة مرتبطٌ ارتباطًا عضويّاً بالاقتصاد الأميركيّ. ولكنّ المهمّ هو أن نتّفق الآن على المبدإ وأن نؤسّس له ونُشْرك الجماهير في حلقات تأطيريّة. والأساس من كل هذا هو أن تنخرس الألسنُ التي تشكّك في هذه المقاطعة بدعوى غيرتها على الاقتصاد الوطنيّ. ونَذْكر في هذا الصدد أنّ إحدى الصحف الاقتصاديّة الفرنكفونيّة في المغرب تَخْرج علينا بمانشيت عريض: «لنقاطعِ الدولارَ الأميركيّ.» غير أنّنا أثناء قراءتنا للموضوع نجده يثير مسألةَ لاجدوى مقاطعة البضائع الأميركيّة. لذلك فهي تدعونا باستهزاء وسخرية إلى مقاطعة الدولار، لأنّها تعلم أنّ أمر مقاطعة الدولار من اختصاص وزارة الماليّة ومكتب الصرف وبنك المغرب ـ وهذه مؤسسات لن تجرؤ على مجرّد التلويح بمقاطعة الدولار!

الرباط

المقرئ أبو زيد الإدريسي

أستاذ جامعيّ ونائب برلمانيّ. عضو الأمانة العامة لحزب العدالة والتنمية، وهو الحزب الإسلاميّ المرخّص له في المغرب. من مؤلفاته: **في المساندة النقديّة لحكومة التناوب**، و**فلسطين وصراع الإرادات**.